

الدفاع عن ثقافة الأمة بين المداينة والممارسة

عبد الناصر أبو البصل

رئيس جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان، الأردن

المقدمة

يتناول البحث موضوع الانتماء للثقافة العربية في العصر الحاضر، مقارنة بالعصور السابقة، وبيان التحديات التي تواجهها والدفاع عنها من الناحية النظرية والعملية، خاصة أن عملية الدفاع عن الثقافة قد دخلت مرحلة الخطاب، ولم تخرج منه في كثير من المحاولات أو التحركات، كما سيتناول البحث مقترحات عملية مباشرة للانتقال من هذه المرحلة إلى مرحلة التطبيق للارتقاء بالمستوى الثقافي للأمة في عصر الانفتاح الثقافي الذي وجد آفاق الفضاء الإعلامي مفتوحة وأبوابه مشرعة للولوج إلى عقول الأمم والمجتمعات، لتتلاقى الثقافات ومكوناتها المختلفة ومعها القيم والعادات والأفكار وأنماط السلوك والعلوم واللغات والفنون، لنجد أنفسنا كأمة أمام مسؤولية كبرى تصل إلى الواجب الذي يعد التقصير فيها تراجعاً بل انتحاراً للأمة لضباب هويتها الثقافية في خضم هذا البحر المتلاطم الأمواج.

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، وبعد؛

فقد أصبح من المؤلف جداً اليوم الاستماع إلى ”الخطاب التحذيري“ أو ”الخطاب العاطفي“ الذي يلامس القلوب ويشحذ الهمم للدفاع عن الثقافة أو عن ثقافة الأمة أو لغتها أو مكوناتها وهي تصارع التحديات وحدها، حتى أضحى الحديث عن هذا الموضوع ”حديث المواسم“ أو ما يقال له في اللغة الغربية ”المتعربة“ ”موضة“ أو ”تقليعة“ أو ”نغمة“ يتغنى بها المفكرون و”المسؤولون“ و”الكتاب“، علاوة على الوعاظ والخطباء، سواء ممن يحسون بثقل المسؤولية تجاه الثقافة أو يبتغون إرضاء العامة أو الجمهور أو القراء بهذا النوع من الخطاب.

إن البكاء والحزن - على المصائب على الرغم من مشروعيتها أو ضرورته الواقعية في كثير من الأحيان- لا يكفي لرد غائلة العدوان، أو إعادة الحياة الناضرة إلى الجسد الذي هذه المرض وأضعفه الإهمال، فما يجدي المشرف على الغرق صياح المتفرجين وتأكيدهم له أنه يغرق إذا لم يمد له أحدهم حبلًا يمسك به أو ينزل الماهر بالسباحة لانتشاله والأخذ بيده لبر الأمان.

لقد غفل كثير من الناس، وكثير من المؤسسات والمجتمعات عن الخطر الداهم المحقق بثقافة الأمة ولغتها وروحها التي تميزها، غير أن آخرين قد كانوا يقظين، وعلى قدر كبير من الوعي والحصانة الثقافية بما يمكنهم من تحديد مكامن الخطر، والوقوف له بالمرصاد، فحذروا ونبهوا، وأمروا بالمعروف، وأدوا النصح والأمانة، وكان منهم ما كان، وبهذا نشأ باب جديد للحديث عن الخطر والتحدي الذي يواجه الثقافة.

لقد نظر مفكرونا وعلمائنا في السابق إلى متطلبات عصرهم وما يواجهونه هم وما سيواجهه أبنائهم في الجيل القادم، فقدموا لهم الثقافة التي يرون إيصالها لهم واجباً شرعياً حضارياً مزوجة ”بجرعة“ من الحصانة الثقافية الفكرية التي تجعلهم قادرين على التعامل مع التحديات والمتطلبات التي حملوها بمقتضى الأمانة .

غير أن لكل زمان مشكلاته وتحدياته التي تختلف قوة وضعفاً ونوعاً وكماً عن تحديات الجيل الذي قبله، ولهذا تجد أن المضمون الثقافي الثابت لم يتغير وإنما تغير الطرح والأسلوب والتركيز بحسب معطيات الواقع ومتطلباته.

لقد كان الحديث في السابق يتناول الاستشراق وتأثيراته ودوافعه، حتى نشأت مراكز بحثية، وكتبت رسائل علمية وبحوث متعددة، محورها الاستشراق؛ ثم وجدنا أن الاستشراق له أثران، أحدهما إيجابي يعنى بتحقيق التراث ونشره وإقامة المشروعات البحثية والتنبهات التحقيقية العلمية إضافة إلى الجوانب السلبية التي تحدثت عنها الدراسات المختلفة، ولكن في النهاية وبعد أن تقلص دوره أصبحنا نترحم على الأيام الاستشراقية والأعمال الاستشراقية - الجيدة النافعة بطبيعة الحال - لأننا وجدنا أنفسنا اليوم في معركة ثقافية لم نعد لها العدة ولم نكن نحسب لها أي حساب.

وفي ختام هذه المقدمة لايسعني إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذة الدكتورة سعاد عبدالوهاب واللجان العاملة معها في تنظيم هذا الملتقى العلمي الفكري على الجهد والجهاد المبذول، وحسن التنظيم والمتابعة والاستقبال والإدارة، فجزاهم الله خير الجزاء، والشكر موصول لجامعة الكويت، ولدولة الكويت العزيزة - حرسها الله - حكومة وشعباً أصيلاً عريقاً محباً للعلم والثقافة.

المطلب الأول مقدمتان وقواعد أساسية

(1) إن الحديث عن الثقافة العربية لا يقف عند حدود الوطن العربي المعروف حالياً، وإنما يتعداه للوجود العربي المنتشر شرقاً وغرباً خارج المجتمعات العربية والإسلامية. وهذا الوجود أو التجمع العربي حمل معه ثقافته ووضعها في موقف (لا تحسد عليه) مع الثقافات والحضارات التي يتعامل معها أو يعيش في ظلها.

(2) إن اللغة العربية مكون من مكونات الثقافة، ومن هنا نجد أن الثقافة العربية - بوصفها ثقافة إسلامية أصيلة - تمتد إلى الوجود غير العربي (الوجود المسلم) في

المجتمعات الإسلامية أينما وجدت في البلاد الإسلامية أو الغرب أو الشرق. وهذا يعني أن الثقافة العربية منتشرة عالمياً بقيمتها وأخلاقها ومكوناتها ولغتها؛ ولكن مكون اللغة يقوى ويضعف بحسب قوة انتشارها واستعمالها في هذا المجتمع أو ذلك، فعلى سبيل المثال نتحدث بعض الدول في إفريقيا أكثر من لغة⁽¹⁾، وقد نمت اللغة العربية نمواً كبيراً فأصبحت اللغة الثانية، وتتقدم لتصبح الأولى بسبب التعليم والإعلام والدعوة، وغير ذلك من مؤثرات تعمل على تقوية اللغة، وتحمل معها سائر المكونات للمجتمع المسلم أو الذي قبل الإسلام أو ارتأى العودة إلى الإسلام بتعبير آخر.

(3) ويمكن القول نفسه في المجتمعات والدول الإسلامية التي أبتت على الحرف العربي ولم تستخدم الحرف اللاتيني للغتها الأم، وهي تقرأ وتكتب بالحرف العربي، ونمو الثقافة العربية أكبر من نمو أي ثقافة أخرى لديها، بخلاف الدول التي لا تستخدم الحرف العربي.

(4) إن العناية بالثقافة العربية لا يعني محاربة اللغة الأجنبية لغايات التعليم والتقنية، كما لا يعني محاربة اللغة المحلية الإقليمية، بل إن هذا الأمر لم يكن (متطلباً حضارياً إسلامياً) بل على العكس من ذلك كان علماءنا يتقنون أكثر من لغة، وكانت أصولهم وبلدانهم مختلفة، ولها لغتها الخاصة بها كما كان لهم مساهمة في التأليف بلغتين أو أكثر: اللغة العربية واللغة المحلية، ولكن كانت الثقافة واحدة، وكانت الثقافة قوية في نفوسهم.

ولا ننسى ونحن نذكر هذا أننا مازلنا نستمتع بأشعار الرومي والشيرازي وإقبال وغيرهم وهم يكتبون بالعربية والأردية والفارسية .

(5) إن النقد الذي قد يلمس من خلال هذه الورقة لا يعني إلقاء اللوم على الآخرين وتبرئة النفس، بل هو نقد للذات، وهو من باب المعذرة وإبراء الذمة أولاً؛ فركاب السفينة إذا تركوا للعباثين حريتهم في الإفساد فيها خشية النقد سوف تغرق سفينتهم وتغرقهم معها.

(6) الناس تجاه الواقع الثقافي للأمة ثلاثة أصناف:

الأول: لا يعنيه أمر الثقافة ولا يدخل في حساباته نظراً للغياب الفكري الذي يسيطر عليه، وهو في أفضل المقاييس كالريشة في مهب الريح؛ يميل حيث تميل، وهذا صنف مقود ومسيطر عليه ومقلد لغيره في الرأي والعمل، ولهذا لا ينتظر منه عمل، أو أن يظهر (اهتماماً) -على الأقل- تجاه ثقافة أمته.

الثاني: يعتني بالشأن الثقافي وبالثقافة ويعمل على إعلاء شأنها غير أنها لديه ثقافة "مشوشة" مترددة، ضعيفة لا تقوى على مواجهة الثقافات الوافدة، سهولة الذوبان والتشكل والتبدل، إنها ثقافة هشّة ليست تلك الثقافة التي تميز أمتنا وتظهر فيها خصائصها ومميزاتا، وتمثل بها ذاتيتنا وهويتنا، وهذا الصنف أخطر على الثقافة من الصنف الأول؛ لأنه مستعد لتبديل ثقافته ولغته وثوابته.

الثالث: صاحب رأي وفكر، يعرف الثقافة ويعايشها، وتسري في عروقه وتشغل باله، وهذا الصنف تشكل التحديات التي يراها أمام الثقافة همّاً كبيراً واجب المواجهة، وقد يكون هذا الصنف معتنياً باللغة ولها ولرفعتها يعمل؛ وقد يكون معتنياً بالقيم والأخلاق والسلوك، وقد يكون معتنياً بالتشريع والقانون، كما قد يكون معتنياً بالقوة الاقتصادية ولها يعمل، كما قد يكون أيضاً معتنياً بالدين والعبادة والقرآن والسنة ويرى عزوفاً عن التدين أو انحرافاً عن الجادة؛ لسبب أو آخر؛ فيجمع هؤلاء همّ واحد هو الثقافة أو أحد مكوناتها، وحديثنا في هذه الورقة عن هذا الصنف من المشتغلين بالشأن الثقافي وبالثقافة عموماً.

المطلب الثاني

الدفاع عن الثقافة - ثقافة شائعة

(المدارس)

لقد انبرى نفر غير قليل للدفاع عن الثقافة تارة بذكر التحديات التي تواجهها والمعوقات والمشكلات التي تعترض سبيل تقدمها بل وجودها أصلاً، وتارة بذكر أهميتها وضرورتها لتقدم الأمة وتميزها وخشبة عليها من الذوبان والاضمحلال.

وقد أصبح من المطلوب والمألوف الدفاع عن اللغة العربية باعتبارها وعاء الثقافة، وتبعه الحديث عن التغريب وسيطرة المناهج الغربية على التفكير والبحث والحديث عن العولمة وسيطرة الثقافة الغربية على الإعلام والتعليم في العالم .

ولا عجب أن وجدنا عشرات الندوات والمؤتمرات ومئات المحاضرات والكتب والبحوث التي تندرج تحت بند الدفاع عن الثقافة.

وفي هذا الخضم الكبير اختلط أو لنقل اجتمع الدفاع عن الثقافة مع الدفاع عن الأمة وتشريعها واقتصادها وحضارتها.

لقد استمر هذا الدفاع وهذا الحراك الثقافي الدفاعي عدة عقود، وكتبت مؤلفات كثيرة وتبعتها ردود وتعقبات ومحاورات، بل دخلت إلى المناهج الدراسية تحت أسماء متعددة.

ثم ماذا كانت النتائج؟

لقد وجدنا أن صيحة المفكرين في القرن الماضي قد آتت أكلها، وأثرت في الجيل السابق، وعملت على تجميشه وتعبئته ضد التحديات بما أخرج لنا مجموعة قائمة للفكر ومدافعة عن ثقافة الأمة باللسان والقلم.

واليوم وقد تغيرت الظروف المحيطة والوسائل المتاحة نجد أن التحدي قد غالب وحاصر، وأصبحت له كلمة مسموعة لدى هذا الجيل بواكير الجيل الجديد.

وبالرجوع إلى واقع الدفاع عن الثقافة نجد أنه بقي حبيس القاعات التي شهدت الندوات التي كانت تتحاور في الدفاع عن ثقافة الأمة، كما بقي مقيداً في صفحات الكتب والمجلات والصحف التي تناولت موضوع الدفاع عن الثقافة، وتحت عناوين متعددة بدءاً من التحديات، ومروراً بالغزو الثقافي، وانتهاء بالصيحات والنداءات؛ غير أن هذا كله كان في إطار الخطاب والحوار وحديث المجالس والمنتديات والندوات والأوراق المحفوظة، وبتعبير آخر: بقي في إطار المدارس لا الممارسة إلا في القليل الذي لا يشكل ثقلاً في كفة الميزان، مما تحتاجه الثقافة اليوم، ولا أقول "الحاجة" بمفهوم علماء أصول الفقه⁽²⁾ بل بما يجاوزها "للضرورة"، وبغير ذلك فالأمة ستواجه نفسها في معركة ثقافية مدمرة.

وإذا أردنا أن نتلمس أسباب المروحة في مرحلة المدارس - لدى قطاع كبير من المشتغلين بهذا الشأن - فإننا نرى أنها لا تتجاوز الآتي :

أولاً : أن مفهوم "الثقافة" الإسلامية العربية لم يحرر فكراً لدى عدد كبير من القادة السياسيين أصحاب القرار؛ وهذا الأمر له دوره السلبي في عدم دخول المضمون الثقافي مجال القرار السيادي الملزم، وقد رأينا خلال الحقبة الماضية كيف أن بعض الأفكار والنظريات - إذا صح التعبير - حينما اعتنقها بعض الساسة أصبحت ذات حظوة، يروج لها ويدافع عنها، ولو كانت من قبيل الخرافة والهرطقة، أو الانحراف الفكري في أحسن أحوالها، مما لا يختلف عليه اثنان، أو كان من قبيل ما ثبتت تجربته وفشله.

ثانياً: أن الأمة (في بعض شعوبها القيادية) بعد أن خرجت من مرحلة الاستعباد الغربي (الاستعمار) دخلت في مرحلة من الخطاب الجماهيري العاطفي الذي يشحن النفوس (ويسليها) و(يشع غرورها) وتسلب أسلوب الخطابة إلى الجامعات والإعلام والمساجد، وينتهي أثره (الخطاب) بانتهاج الإلقاء ومرور عدة ساعات (النشوة)، ثم نعود إلى ما كنا عليه (من عدم الاكتراث الثقافي).⁽³⁾

وهذه المسألة في تلك المرحلة الحرجة من حياة الأمة كان لها دورها السلبي في قتل الدافع العملي لدى المثقفين والعلماء والتربويين القادرين على الفعل الحضاري ؛ بل كان لهذه الخطائية السلبية القاتلة دورها في تصنيف ثقافتنا بأنها ثقافة شفاهية، مقصدهم من وصفها بهذا إلغاء الصفة العملية الإيجابية الفاعلة .

لقد نسي هؤلاء أن كلمة (عمل) تتضمن ثلاثة حروف، هي نفسها حروف (علم)، وأن حرف اللام في اللغة يسبق حرف الميم حتى يسبق العلم العمل، ومن صميم عقيدة الأمة أن الإيمان يكون بتكامل العناصر الثلاثة، وهي :

1 - قول باللسان.

2 - واعتقاد بالجنان(القلب).

3 - وعمل بالأركان.

والأمة على مدار التاريخ كانت تأخذ بهذا بوسطية وتكامل؛ وحينما دخلت فكرة "أن الايمان بالقلب" فقط، وتركت الأمة العمل، تراجع دورها، وسلبت منها القيادة التي لم تحافظ عليها .

ومن هنا كانت ثقافة الأمة ثقافة عمل لاقول، ولسنا بحاجة للتذكير بقوله سبحانه وهو ينعي على أولئك الذين يخالف قولهم عملهم أو لا يترجم عملهم قولهم: ﴿...لَمْ تَقُولُوا مَا لَمْ نَفْعَلْ وَلَا نَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٤﴾

ولأريد أن يفهم من كلامي أنني أقلل من شأن الخطاب في هذا المجال، فهو فعل إيجابي يدل على الحركة والعناية والاهتمام، ولكن أقول إن الخطاب وحده ممن يستطيع الفعل الإيجابي لا يكفي، وعلى سبيل المثال : من يمتلك ناصية القرار في مؤسسة ثقافية أو إعلامية أو تربوية تعليمية لا يقبل من القول أو الحث أو التأكيد إذا لم يكن ذلك كافياً لإحداث التغيير والتجاوب مع مقتضيات الانتماء الثقافي .

ثالثاً: عدم وجود محاسبة على (عدم العمل)؛ بمعنى الحسبة على التقصير، فمن يحاسب المعلم والخطيب والقاضي ورب الأسرة والوالي والوزير والمتقف والداعية والشاعر وغيرهم كثير .

رابعاً : عدم وجود برامج حقيقية موضوعة وفق أسس علمية سليمة ترصد الخلل وتضع الحلول والخطط الناجعة .

المطلب الثالث

تحليل نقاط القوة والضعف للثقافة الإسلامية العربية

حتى نحكم على الثقافة من وجهة نظر تنطلق من واقع الثقافة وحققتها تناولت هذا الموضوع مستخدماً عناصر تحليل نقاط القوة والضعف المتعلقة بالثقافة العربية⁽⁴⁾، وقد رأيت أن هذا النوع من التحليل يؤدي إلى نتائج واقعية، يمكن الاستفادة منها في بناء الخطط والبرامج المستقبلية أو خطط المواجهة التي يمكن تطبيقها وتنفيذ بنودها .

| القوة | الضعف |
|--|---|
| (1) أصيلة وليست دخيلة، وهي نابعة من الأمة وفكرها | (1) ضعف التحصين الثقافي |
| (2) أنها مرتبطة بالدين والعقيدة | (2) وجود غياب مفهومي ثقافي لدى الجيل الجديد. |
| (3) أنها تقبل التعددية | (3) ضعف اللغة الثقافية الأصيلة (قلة الترجمة، عدم المواكبة) |
| (4) أنها حضارة الوسط (الوسطية) في أعلى نموذجها - سمات الوسطية تمنحها الاستمرارية. موافقة لفطرة | (4) عدم وجود برامج فاعلة لمواجهة التحديات |
| (5) اللغة العربية لغتها ولغة القرآن | (5) عدم التكامل بين المؤسسات الثقافية الفاعلة (غياب التخطيط والتنسيق) |
| الفرص | التحديات |
| (1) تطور وسائل الاتصال يتيح لها مجالاً للانتشار (الدعوة للثقافة) | (1) العولمة وصراع الثقافات |
| (2) المجال مفتوح للمنافسة وإظهار مواطن القوة والأفضلية | (2) الغزو الفكري والثقافي الغربي |
| (3) عدد السكان الذين يعتنقونها كبير والموافق لها أكبر | (3) اختراق حاجز الأمن الثقافي |

عناصر القوة في الثقافة العربية

الأساس الذي يجعل الواحد منا ينعم بالطمأنينة وهو يتناول الشأن الثقافي ويرى التحديات التي تواجهه؛ هو تلك العناصر القوية التي تتمتع بها ثقافتنا ذاتياً، وبمقتضى مضمونها ومكوناتها، ولقوة الثقافة مقومات لا بد من وجودها، وقد جعلها بعض المفكرين ثلاثة عناصر، وذلك مثل الدكتور عبدالعزيز التويجري أمين عام الإيسسكو حيث يقول: "ولا يتأتى للثقافة أن تمتلك القوة والمناعة، وتنهض بهذه المسؤولية على الوجه المرغوب فيه،

إلا إذا توفّرت لها ثلاثة شروط تعتبر من مصادر القوة في الثقافة العربية الإسلامية، ومن أسس النهضة الثقافية، ومن العناصر الأساس لبنية الثقافة العربية الإسلامية :
 أولاً : أن تكون الثقافة ذات مرتكزات تستند إليها ومبادئ تقوم عليها، فلا تكون ثقافة منبّته الجذور، لا هوية لها تُعرف بها، ولا خصائص لديها تميّزها.
 ثانياً : أن تكون الثقافة ذات أفق مفتوح ورؤية شاملة، لها قابلية للتفاعل مع الثقافات الأخرى، ولها استعداداً كامناً في أصولها للتعامل مع الثقافات الإنسانية من هذه المنطلقات.

ثالثاً : أن تكون الثقافة ذات منحى إنساني تتخطى به المجال المحلي أو الإقليمي، إلى الآفاق العالمية، من دون أن ينال ذلك من خصوصيتها، أو يؤثّر في طبيعتها، فتكون بذلك ثقافة تواصل بشري، وتجاوز إنساني، وثقافة تفاهم يؤدي إلى التعايش بين الأمم، وثقافة تعاون يحقق التضامن بين الشعوب⁽⁵⁾.
 وتحليل عناصر القوة في الثقافة العربية الإسلامية نجد لها كثيرة يصعب إيرادها وتوضيحها في هذه الورقة، ولكننا سنركز على الأساسيات، وبيانها على النحو التالي :

(1) الأصالة

فليست ثقافتنا تابعة لغيرها أو مستوردة من حضارة أخرى، فهي نابعة من أمتنا ومرتبطة بها، وتسري في عروق أبنائها، ومن هنا لم تكن الثقافة التي تهيمن على عقليتنا وتندرج فيها عاداتنا ولغتنا ومناط تفكيرنا - أقول - لم تكن غريبة عنا أو مفروضة من الخارج علينا.

(2) أنها مرتبطة بالدين

وهذا الارتباط أو الاستمداد منحها قوة ذاتية تستعصي على الذوبان أو الاضمحلال، خاصة أن أسسه العامة تتميز بعدة مميزات، أهمها:

أ- بناؤه على الاجتهاد والإبداع ومواكبة المستجدات، والإسلام - كما هو معروف - انفراد بمكافأة المجتهد حتى في حالة الخطأ لئلا يتوقف الاجتهاد، قال - صلى الله عليه وسلم - : «إذا حكم الحاكم فاجتهد وأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد» متفق عليه.

ب - بناؤه على الكمال والشمول فوضع تصوراً للكون والإنسان ووضع قواعد تحكم هذا التصور.

ج - إعلاء شأن العلم ومحاربته للخرافة والسلبية.

د - أنه لا يرفض الآخر بل وضع القوانين الناظمة للعلاقة مع الآخر بتوازن ووسطية.

﴿أَمَّا الرَّسُولُ فَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾
(البقرة: 285).

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: 8).

فالأخر - وفق الإسلام - جزء فاعل في الحضارة، والتاريخ شاهد، ومن هنا نستطيع جعل التعددية والتنوع داخل حضارة الإسلام سمة مستقلة، حيث قبلت الألوان واللغات والأجناس والأديان باعتبارهم فاعلين في الحضارة وبثقافة تتسع له لما تحويه من مكونات تؤهلها لقبولهم وإسهامهم في الحضارة.

(3) أنها وسطية

يقول الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ..﴾

(البقرة: 143)

وقد خلصت المؤتمرات والدراسات في تحديد مفهوم الوسطية إلى أن "الوسطية منهج شرعي بعث الله به سائر الرسل - عليهم الصلاة والسلام- سباجاً قوياً ضد الوقوع في براثن الغلو والإفراط.

والوسطية ليست محصورة في جزئية من الجزئيات، ولا في ركن من الأركان وإنما هي منهج متكامل شامل، لا ينفصل بعضه عن بعض؛ فالإسلام هو الوسطية مضموناً ومنهجاً، وإن السمات العامة للوسطية تتمثل في الخيرية والاستقامة واليسر ورفع الحرج والبينية والعدل. وأن يكون المؤمن مدركاً لشأنه عالماً بزمانه ومكانه، وإن معاييرها لا تدرك إلا بعد معرفة حدود الإفراط والتفريط.."⁽⁶⁾

والوسطية كما حررها بعض المفكرين في حديثهم عن حضارة الوسط؛ ” حضارة المعنى والمادة؛ فتنظر للإنسان بوصفه روحاً بقدر ما هو جسد وأن سعادة الإنسان لا تتحقق إلا بالإشباع الروحي والمادي ..“ (7)

(4) أنها إنسانية

فلم يكن خطابها لقوم وقبيلة وشعب بل كانت (أيها الناس) هي أساس الخطاب، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم (رحمة للعالمين).

(5) أنها موافقة للفطرة، ولا تتعارض معها

وهذا ما أخذته الثقافة من انبثاقها من الدين وما أحكمته التجارب على مر التاريخ، ولهذا تجد أنها تتفق على ما كان فيه مصلحة الناس دون ما فيه ضيق.

(6) أنها ثقافة لها امتداد تاريخي وليست منبته الصلة بالماضي مع المحافظة على المعاصرة. وهذا يعني أنها ثقافة ذات تجربة ناجحة، عصية على الذوبان، فقد واجهت وعاصرت ثقافات وحضارات.

(7) أنها تتسم بالشمول (الموضوعي والمكاني والزماني)

«ولعل القضية الأهم هنا والجديرة بمزيد من التفكير والنظر والتبصر وتحقق القناعة الكاملة، أن الإسلام في رؤيته للحياة أو فلسفته لها بشكل عام، قدم قيماً ضابطة وأطراً مرجعية، ولم يقدم برامج محددة، إلا في القضايا التي تعتبر من الثوابت: تلك التي تميز المجتمع المسلم وتحتفظ بوجهته وقبلته وشاكلته الثقافية وخصائصه، أما فيما وراء ذلك فترك الأمر للاجتهاد والتفكير والإفادة من التبادل المعرفي وحركة العقل المسترشد بهداية الوحي وضوابطه، المعصوم بها. وهذا - بلا شك - كان سبب خلود الإسلام ومرونته واستمرار عطائه؛ لأن ذلك يمنح العقل أقدراً من الحركة والانطلاقة والحرية والإنجاز والاستشراف المستقبلي، ويحمي الطاقات الفكرية من الضياع والإهدار.» (8)

(8) أن لها لغة عالمية تعد حبلًا يربطها بغيرها من خلال الإسلام الذي يجمع أمة زاد تعدادها المليار.

مواطنه الضعف في الثقافة العربية

- (1) اختلاف اللغات المنتشرة بين أبناء الأمة وكثرتها.
- (2) ضعف اللغة الفصيحة وشيوع العامية والإغراق فيها أيضاً.
- (3) ضعف الوعي الثقافي المطلوب لتشكيل جدار الأمن الثقافي الذاتي.
- (4) عدم اكتمال البرامج التربوية وانفصالها عن ثقافة الأمة.
- (5) عدم توحيد الأهداف والخطط التعليمية والتربوية في المجتمع العربي الإسلامي.
- (6) قلة المحتوى الثقافي العربي والإسلامي على الانترنت والقنوات الفضائية ووسائل الاتصال المعاصرة.
- (7) ضعف الإبداع والتجديد في المادة الثقافية المعروضة على الناشئة (غياب التشويق...)

الفرصة المتاحة أمام الثقافة العربية

- (1) الفضاء المفتوح المتمثل في وجود:
 - أ- القنوات الفضائية التي يمكن استخدامها.
 - ب- شبكة الإنترنت التي تحوي مجموعة لا تحصى من النوافذ المفتوحة الموصلة إلى شريحة كبيرة من شرائح المجتمع العربي والإسلامي وخاصة فئة الشباب.وهذا الفضاء وهذه التقنيات تمثل فرصة ذهبية، إذا أمكن استعمالها واستغلالها لخدمة ثقافة الأمة أمكن تغيير وجه التاريخ المعاصر.
- (2) شبابية الأمة وفتوتها، (حيث يمثل قطاع الشباب الشريحة العظمى للمجتمع العربي الإسلامي)، وهذا يعني أن طاقات أبناء الأمة فتية قوية يمكن استعمالها وتوجيهها للخير بدل التحول للشر ولتضييع الأوقات.
- (3) وجود المال اللازم لدى الأمة؛ حيث الثروات الكبيرة والصادرات التجارية .

التحديات والتحديات أمام الثقافة العربية

(1) الفضاء المفتوح وهذا الفضاء بأنواعه المختلفة ووسائله المتعددة المتطورة أداة وطريق إلى عقول أتباع هذه الثقافة وقلوبهم، وله من القدرة التأثيرية بحكم المتابعة والتركيز ما لا يخفى على أحد وقد نتج ومنتج، عن هذا الفضاء - بقصد أو دون قصد - الأمور التالية:

- إضعاف اللغة العربية وإحلال الأجنبية الغربية مكانها.

- تشجيع اللغات العامية والشعر العامي والأخبار بالعامية....

- التغيير السلبي للأشكال الثقافية فكراً وسلوكاً (تغريب، وتشويه، ذوبان).

(2) القوى السياسية والاقتصادية الدولية وتأثيراتها على ثقافة الأمة، وهنا لا نكون فعالين إذا قلنا: إن نظرية ابن خلدون - حول العلاقة بين ثقافة الغالب وسيطرتها على عقلية المغلوب - قد أصبحت قانوناً يسيطر على نفوس عدد غير قليل من أبناء الأمة وعقولهم، ونجد مصداق ذلك في ظواهر كثيرة أضحت منتشرة في مجتمعاتنا الإسلامية.

(3) شيوع نظريات وجدت لها صدى في الواقع وتبنياً في المحافل الدولية، مثل صدام الحضارات، وصراع الثقافات، ونهاية التاريخ، وغيرها مما لمسناه واكتوينا بناه.

(4) غياب الوعي لدى أبناء الأمة زاد من فرصة التهديد وقلل من سرعة النهوض.

المطلب الرابع

نحو برنامج عملي للدفاع عن الثقافة

لا شك أن محافظة الثقافة العربية اليوم على وجودها ومقاومتها لكل التحديات التي واجهتها عبر التاريخ لم تكن وليد مصادفة عمياء أو تدخل خارجي، وإنما كانت لما تحتويه هذه الثقافة من عناصر قوة فيما سبق. هذا سبب، والسبب الآخر أن ممارسة الثقافة على صعيد الواقع كان روح الحياة للمجتمعات العربية والإسلامية، وفي العصر الحاضر توجد محاولات جديدة للمحافظة على الثقافة العربية والارتقاء بها لتكون أكثر فاعلية في أحداث الفعل الحضاري المنشود بل الواجب على الأمة القيام به نتيجة تبوئها لمركز

”الشاهد“ على الأمم انطلاقاً من قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ....﴾ (البقرة، الآية 341) ومعنى الشاهد هنا الخيار العدل، والعدل ليس ظالماً ولا متعصباً ولا متعاساً ولا متخاذلاً، وإنما هو مؤمن ملتزم بالقيم العليا التي تضمن للبشرية صلاحها وانتظام حياتها انطلاقاً من قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِيبِينَ....﴾ (القصص: 38).

إن العناية بالثقافة لهو واجب الوقت اليوم، ولانبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بدأ بالثقيف (عن طريق الدعوة) والتعليم ابتداء ونحن جميعاً تعلمنا منذ الصغر أن أول آية وسورة نزلت على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هي ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ....﴾ (العلق: 1).

ولهذا كان ماسطره كثير من العلماء وهم يقفون مع أمتهم بالقلم واللسان بالشعر والنثر والمقالة والمحاورة وغيره من أساليب ووسائل يقومون بواجب يعتقدون أنه جهاد ثقافي - بحسب استطاعته، ولربما كان أقوى وأبلغ من القتال العسكري فيما لا ينفع سلاح الحديد في موضع سلاح الكلمة.

وما سأعرضه بالنسبة إلى البرنامج العملي ليس خطة مسطرة بالمراحل والإجراءات؛ فهذا يحتاج من كل بلد واختصاص أهله، ولكن نذكر خطوطاً، عريضة يستهدى بها، وتكون محلاً، للحوار والمناقشة للوصول إلى صيغة عملية مدروسة قلب فيها النظر والفكر، وروجعت وأخذ كل طرف بما يخصه.

خطوط رئيسة للتخطيط العملي للمحافظة على الثقافة وبعثها

أولاً: لا بد من أن يكون بناء ”البرنامج العملي“ للارتقاء بالثقافة أو المحافظة عليها أو بعث الروح فيها منطلقاً من دراسة الواقع الذي تعيشه الثقافة اليوم.

وقد سبق أن بينا مواطن القوة والضعف في هذه الثقافة، ومواطن التهديد والفرص المتاحة، ومن خلالها لا بد أن ننطلق حتى يكون قرارنا أو تكون خططنا أقرب إلى الصواب.

كما يجب أن يسبق العمل البنائي أو يترافق معه إجراء عملية تنقية الموروث الذي

دخل إلى الثقافة وليس أصيلاً فيها أو كان نتيجة لأعراف سائدة أو اجتهادات فردية لم تقبله الأمة أو جمهور علمائها ومفكريها.

ثانياً: أن يكون البرنامج أو "موضوع" المحافظة على الثقافة أو "إحياء الثقافة" أو "إحياء اللغة"؛ مشروعاً عربياً إسلامياً على مستوى الأمة ثم مشروعاً وطنياً.

فيتم تبني هذا المشروع من قبل المنظمات الدولية العربية، ثم الدولية الإسلامية، ثم يصبح مشروعاً لكل دولة، تتعاون مؤسساتها على إنجاحه وفق خطة موحدة تنقل لكل الدول، ويتم التدريب عليها وتشكيل الفرق العاملة في هذا المشروع، ويترك لكل دولة خصوصياتها.

وقد رأينا مشروعات عديدة تدخل ضمن برامج اجتماعات الدول العربية والإسلامية، ويتم التشاور ووضع الخطط بشأنها، ولاشك أن الثقافة هي أولى الأولويات لما تخلفه من نتائج خطيرة على مستوى الأمة وليس على مستوى الأفراد فحسب.

ثالثاً: تعزيز الانتماء للثقافة والإيمان بها وخاصة لدى القادة وأرباب الفكر والتربية والتعليم والإعلام، وقد رأينا الثقافات السائدة تجرد من يؤمن بها ويدعو لها، بل يعتبرها الشغل الشاغل له، وهو دائم الحديث عنها، فإذا وضعت خطط وبرامج ووصلت لمن لا يؤمنون بها لم تجرد صدى على أرض الواقع، بل إن القادة اذا اقتنعوا بفكرة ذلت لها الصعاب وعبدت أمامها الطرق.

كما لا بد أن يكون البرنامج شاملاً ومتكاملاً يحدد كل مرحلة، ودور كل جهة ومؤسسة؛ بدءاً بالأسرة ومروراً بالمدرسة والجامعة والإعلام وغيرها.

رابعاً: العناية باللغة العربية ووضع القوانين التي تكفل تعليمها وتعلمها واستعمالها والارتقاء بها، ومحاربة العامية والمحلية بوصفها بديلاً للفصحى، ووضع الخطط والبرامج والمصنفات الحديثة للتعليم والتعليم.

إن الحديث عن اللغة ومعاناتها وشكواها من أهلها وهجرهم لها وتحولهم عنها لغة للثقافة والعلم أمر أصبح من المعروف ضرورة وبداهة.

خامساً: استعمال الأدوات المعاصرة والتقنيات الحديثة (التي استعملت ذاتها في إضعاف

الثقافة واللغة) في إعادة المكانة للثقافة، وهي بالتجربة العملية أكبر أثراً في الجيل المعاصر.

سادساً: إعادة صياغة التراث بلغة تناسب العصر وتدريب الجيل المعاصر على الفهم والمنهجية، فالخشية من التطوير والتحديث ممن لم (يتشربوا) حب الثقافة والإيمان بها وحب العربية وتذوقها وفهمها سيؤدي إلى عواقب وخيمة وعلى حد تعبير العلامة الطناحي رحمه الله: (سيتحول التراث العربي إلى ألغاز وطلاسم)⁽⁹⁾؛ وذلك لكون الجيل الجديد لا يستطيع فهمه ولا التعامل معه لغة ومعنى، حتى لدى تخصصات تعد لصيقة بالتراث العلوم الإسلامية والعربية؛ حتى رأينا من يتهمك على الكتب الصفراء والمعاجم والشعر العربي الجاهلي ومؤلفات الفقه والتفسير وغيرها.

سابعاً: أن تتضمن الخطة عناصر أساسية من حيث المضمون مركزة على مجموعة عناصر وجوداً ونبذاً ما يصادها عدماً، فعلى سبيل المثال نركز على:

- ثقافة العلم ونبذ ثقافة الخرافة .
- ثقافة المنهجية ونبذ ثقافة العشوائية والعبثية.
- ثقافة الإتقان ونبذ ثقافة الإهمال والغش.
- ثقافة التقوى والرقابة الذاتية ونبذ ثقافة الفساد والتحايل على القانون.
- قوة الثقافة ونبذ ثقافة القوة والعنف (دون مساس بثوابت الأمة في الدفاع عن الوطن والأرض والعرض).
- ثقافة الوحدة ونبذ النزعة التفرقية والإقليمية الضيقة (وهذا لا يعني إلغاء حب الوطن ولا يتعارض مع الانتساب للدولة والبلد والدولة اليوم؛ لأن الانتماء للأمة هو الحلقة الكبيرة التي تتسع للحلقات الصغرى التي تندرج تحتها وفي ضمنها، وكان هذا الأمر منتشرًا على مدار التاريخ الإسلامي .
- ثامناً: إحياء النماذج الناجحة التي كانت تمثل حركات تجديد وبعث للأمة وثقافتها وفكرها، فالحديث عن البطولة والأبطال يشجع على إعادة نماذجها وتجاربها في الواقع.

العواصم

- (1) عن الدول غير العربية.
- (2) وتعني ما يرفع الحرج عن الناس من المعاملات والأحكام التي تيسر حياتهم، بخلاف الضرورة التي إذا لم تلب فسدت الحياة بل فوتت .
- (3) لقد كان من المشهور لدى الجماهير العربية لزومهم المذيع في اثناء إلقاء بعض القادة لخطاباتهم كما أنهم يلزمون لها لدى أداء بعض الفنانين لأغنية ما في تلك الحقبة .
- (4) سورة الصف، آيتان: (2، 3)
- (5) وهو ما يطلق عليه بالمختصر الإنجليزي (SWOT)
- (6) عبدالعزيز التويجري، الثقافة العربية والثقافات الأخرى. « [http: //www.isesco.org.ma /](http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Takafarabia/page5.php) »
- (7) مؤتمر الوسطية في الكويت، ومؤتمر الوسطية في عمان .
- (8) رفيق حبيب في كتابه حضارة الوسط، ص 1454.
- (9) انظر تقديم عمر عبيد حسنة لكتاب الأمة بعنوان
- (10) مقالات الأستاذ محمود الطناحي، الجزء الأول، ص

المراجع

- (1) «Marek. M. Dziekan» Polacy a swiat arabski (البولنديون والعالم العربي)، Gdansk، ص50-52.
- (2) Edward Szymanski ،Tadeusz Lewicki (1906-1992) ،Przeglad Orientalistyczny (مجلة الاستشراق) رقم 1-2 1993-1996، ص 96-101
- (3) Elzbieta Gorska، Professor Andrzej Czapkiewicz ، Folia - Orientalna (فوليا أوريينتالنا)، المجلد الثامن والعشرون، Krakow 1991، ص 5-6